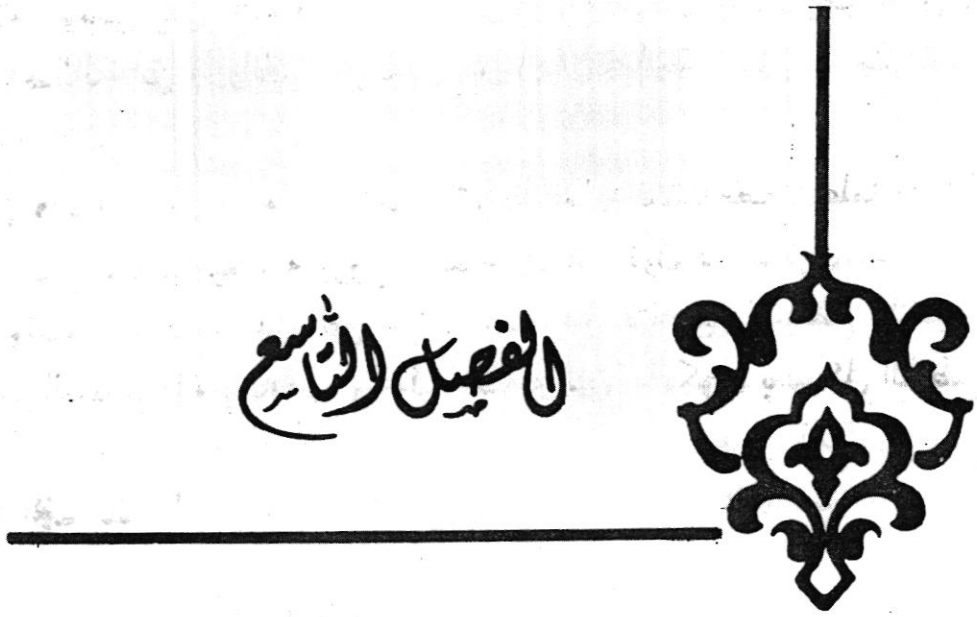

الفصل التاسع

قدامة بن جعفر والاثر اليوناني

لقدامة بن جعفر في تاريخ النقد العربي مكانة لا يمكن اغفالها . ويعود السبب في هذا الى امرين اثنين ...

١ . ان كتاب (نقد الشعر) اول محاولة منهجية لدراسة الشعر على اساس نظري واضح ومتكامل .

٢ . ان قدامة بن جعفر من اوائل النقاد الذين تأثروا بشكل او بآخر بالافكار الارسطية في الشعر .

ومن المعتقد ان لثقافة قدامة الفلسفية والمنطقية اثراً واضحاً في نظرته الشاملة الى الشعر بصفته علماً او صناعة كما يقول . وقد ابعدته هذه النظرة الشاملة عن النزعة التجزيئية الذوقية التي ميزت بعض الاتجاهات النقدية السابقة عليه .

ولا يمكن ـ بالطبع ـ تجاهل ان هذه الثقافة هي التي فتحت الباب امام التأثير اليوناني بعامة والتأثير الارسطي بخاصة . ويرى د. احسان عباس ان للمنطق اثراً كبيراً في تأليف الكتاب وتبويبه وتقسيمه وتفريعاته وفي اساليب حصر المعاني وتحديد معنى الشعر(١) .

١ . تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٨٩ ، ٢٠٤

وكان ابن النديم قد وصفه بالقول انه كان ((احد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ، وممن يشار اليه في علم المنطق))(٢) ويقول ياقوت عنه ((ان قدامة قرأ صدرا صالحاً من المنطق ، وانه لائح على ديباجة تصانيفه مثل كتابة نقد الشعر))(٣) .

ان هذه الثقافة مكنته من دراسة القواعد العامة للنقد بصفته علماً ((واطلقته من اسار التشيع للقديم ليعالجه بروح فلسفية)) كما يقول د . شكري عياد(٤) . الا انها في الوقت نفسه ـ ابعدته عن دراسة الشعر بصفته فنا لايخضع للتقنين الشديد والحصر المنطقي العنيف(٥) . وجعلت كتابه اشبه مايكون بالهيكل المنطقي(٦) .

لماذا الف نقد الشعر ؟

لاحظ قدامة ان العلم بالشعر اقسام خمسة :

١ . علم ينسب الى وزنه وعروضه .
٢ . علم ينسب الى قوافيه ومقاطعه .
٣ . علم ينسب الى غريبه ولغته .
٤ . علم ينسب الى معانيه والمقصد منه .
٥ . علم ينسب الى جيده ورديئة .

وقد عنى الناس قبله بوضع الكتب في الاقسام الاربعة الاولى ، ولم يجد ((احداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيد من رديئه كتاباً . وكان الكلام عندي في هذا القسم اولى بالشعر من سائر الاقسامً المحدودة))(٧) ويقول ((فاما علم جيد الشعر من رديئه فان الناس يخبطون في ذلك منذ تفقهوا في العلوم فقليلاً ما يصيبون ولما وجدت الامر على ذلك . وتبينت ان الكلام في هذا الامر اخص بالشعر من سائر الاسباب الاخر . وان الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه ، رأيت ان اتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع)(٨) .

---

(٢) الفهرست ، ١٩٤ مطبعة الاستقامة
(٣) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٩٠ وما بعدها .
(٤) كتاب ارسطو طاليس في الشعر (القاهرة ١٩٦٧) ٢٨٧
(٥) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٣٦
(٦) النقد المنهجي عند العرب ٦٤
(٧) نقد الشعر . تحقيق كمال مصطفى (ط اولى ١٩٤٩) ٩
(٨) المصدر السابق ١٠

مهمة نقد الشعر عند قدامة لاصلة لها بعروضه او اوزانه او لغته . فهذه ليست من جوهر الشعر في شيء . ولا تساعد على الكشف عن الشعر بصفته شعراً . فالحديث في اللغة والغريب والمعاني محتاج اليه في الشعر كما في النثر . وليس احدهما اولى به من الاخر . واما علم العروض والقافية فمع انها مما يخص الشعر دون النثر . الا ان معرفتها والعلم بها ليس ضرورياً . فقد كان الشعراء يقولون الشعر قبل ان يعرف علم العروض والقافية . وكان مدار الامر عندهم على الذوق والاذن المرهفة التي تستطيع ان تدرك الزحاف والعلل من دون معرفة سابقة بها . وكأني بقدامة يرد في هذا الذي قاله على ماكان يجري عليه النقد في عصره او قبله . اذ لاحظ ان النقد اتجه الى اللغة يزنها بميزان الخطأ والصواب والى المعاني يقومها على نحو جزئي لايرتبط بما قبله وما بعده . وصار ـ عند هؤلاء ـ الحكم على اللفظه او العبارة او المعنى حكماً على الشعر وليس ذلك بشيء . فالنقد ـ عند قدامة ـ تمييز الجيد من الرديء . ومعرفة هذا تحتاج الى علم دقيق بطبيعة الشعر اولاً . وقد رأى الناس يخبطون فيه . ولذلك . فبعد ان حدد قدامة مهمة نقد الشعر على النحو الذي اسلفنا القول فيه . بدأ بتحديد الشعر فقال ((انه قول موزون مقفى يدل على معنى))(٩) فالشعر بصفته (قولاً) يميزه من الذي ليس بقول . وكونه (موزوناً) يفصله عما ليس بموزون . وقوله (مقفى) يميزه من الاقوال الموزونة غير المقفاة . وقوله (يدل على معنى) يميز القول الموزون المقفى ذا المعنى من مثيله مما لا يدل على معنى .

وهذا تعريف جامع مانع كما يقول المناطقة . فقد بدأوا بالجنس (العام) وهو القول . ثم بدأ يخصه بالوزن (الفصل) فاخرج من الاقاويل ماليس موزوناً . ثم خصه بالقافية فاخرج من الكلام الموزون ماليس مقفى ثم خصه بدلالة المعنى فاخرج من الكلام الموزون المقفى من مثيله الذي لامعنى له ومع ذلك فالتعريف يخلو من اية اشارة الى الخيال والصورة . وهما مما لايخلو شعر منهما . فالتعريف الذي ارتضاه قدامة لنفسه ينصرف الى النظم اكثر مما ينصرف الى الشعر . وفرق كبير بين النظم الذي هو رصف للكلمات على وزن واحد وروى واحد كما هو حال المنظومات العلمية . وبين الشعر الذي هو تعبير عن الوجدان وتصوير للمشاعر . ويقول د . مصطفى الجوزو بهذا الصدد ان قدامة لم يكن يقصد بتعريفه هذا

---

(٩) المصدر السابق ١١ . يعد بعض الدارسين تعريف قدامة هذا اوضح تعريف . ولعله اقدمها . وقد نقل هذا التعريف عنه بالحرف الواحد كثيرون . منهم على سبيل المثال الحاتمي (ت ٣٨٨ هـ) واحمد بن فارس (ت ٣٩٥ هـ) والمرزوقي (٤٢١ هـ) وابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) واسامة ابن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) ابن الاثير (٦٣٧ هـ) انظر د . مصطفى الجوزو نظريات الشعر عند العرب (بيروت ١٩٨١) ١٩٨ وما بعدها .

المنظومات العلمية لانها لم تكن شائعة في عصره من ناحية ولانه حدد بمعاني الشعر ماجاء على المدح والهجاء والمراثي وغيرها . والشعر لايكون الا بهذه من ناحية اخرى(١٠) .

وميزه قدامة ـ على حال ـ انه صرف اهتمام النقد من الشاعر ـ كما كان الحال عند ابن سلام ـ الى الشعر(١١) . وهذا هو عين الصواب . وقد بدأ اتجاهه هذا منذ ان عرف الشعر . ومنذ ان ربط الشعر بالصناعة . اي المهارة التي قد تصل بالشيء الى اقصى مراتب الجودة . او قد تنزل به الى ادنى مراتب الرداءة ... وبينهما حالات وسطى . ويقول قدامة : ـ ((اذا كان الشعر جارياً على سبيل سائر الصناعات مقصوداً فيه وفي مايحاك ويؤلف منه الى غاية التجويد . وكان العاجز عن هذه الغاية من الشعراء انما هو من ضعفت صناعته)(١٢) .

المعاني في الشعر :

لعل ابرز مايلاحظ على قدامة في حديثه عن المعنى محاولته حصر المعاني الشعرية في اغراض . وتحديد هذه الاغراض على نحو يشي بتأثير يوناني .

فالدكتور بدوى طبانة يرى ان قدامة اول من حصر اغراض الشعر وتتبع معانيه . وانه في هذا متأثر بأرسطو(١٣) . في حين يرى الدكتور محمد غنيمي هلال ان لقدامة فضل الريادة في دراسة الاجناس الشعرية من حيث الموقف والبواعث النفسية وما يترتب على ذلك من تخير للمعاني وطرق للصياغة(١٤) .

والواقع ان قدامة كان يدرك صعوبة حصر المعاني. فهو يقول ((ولما كانت اقسام المعاني التي يحتاج فيها الى ان تكون على هذه الصفة (مواجهاً للغرض المقصود) مما لانهاية لعدده ولم يمكن ان يؤتى على تعديد جميع ذلك . ولا ان يبلغ آخره . رأيت ان اذكر منه صدراً ينبىء عن نفسه ويكون مثالاً لغيره . وعبرة لما لم

---

(١٠) نظريات الشعر عند العرب ١٩٨

(١١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٠٨

(١٢) نقد الشعر ١٢

(١٣) قدامة بن جعفر والنقد الادبي (القاهرة ١٩٥٨) ٣١٣

(١٤) النقد الادبي الحديث (القاهرة ١٩٦٩) ١٧٦